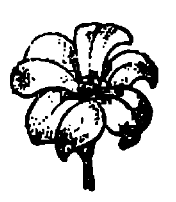
أبو الحسن علي الحسني الندوي

حكمة الدعوة وصفة الدعاة

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامى العلمى ، ندوة العلماء
ص . ب - ١١٩ - لكناؤ (الهند)

من مطبوعات المجمع الاسلامى العلمى رقم : ٢٢٢



الطبعة الجديدة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

المطبعة الندوية

ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

بين يدى المحاضرة

ألقيت هذه المحاضرة القيمة المثيرة بتاريخ ١٧ / ٤/ ١٤٠٠ه في قاعة المحاضرات بالجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة ـ على صاحبها الصلاة و السلام ـ على طلب من طلاب الجامعة الذين أحبوا صاحبها الداعية المجاهد سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى و طال عهدهم بسماع محاضرته ، و تقدموا بالطلب إلى مسئولى الجامعة الذين شاركوهم فى الشعور و رحبوا به ، و أعلن عن المحاضرة فانتشر خبرها بسرعة فى أرجاء الجامعة ، وكان الاجتماع حاشداً ، يضم الطلاب و الأساتذة و مسئولى الجامعة ، و اكتظت القاعة حتى ما بقى فيها موضع إنسان ، ورأس الحفل نائب رئيس الجامعة معالى الدكتور الشيخ عبد الله الزايد .

بدىء الحفل بتلاوة هذه الآيات الكريمات « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً . . إلى آخر الآيات » فكانت خير افتتاح ، تناسب موضوع المحاضرة الذى هو « حكمة الدعوة وصفة الدعاة » .

وخيم الهدوء و السكينة على الحضور ، و استمعوا إلى

المحاضرة بشوق و إعجاب ، و ما انتهت المحاضرة إلا و قد رقت القلوب وهملت الدموع من بعض العيون ، و تمنى الداعية المحاضر أن ينقش كلمة سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ « أينقص الدين وأناحى ؟ » على صدر كل طالب وشاب مسلم ، و قد نقشها فعلا ، فكانت هى خلاصة المحاضرة ، و رائد الحفل ، فجزاه الله عن الاسلام و المسلمين خير الجزاء .

و قد سجل المحاضرة عدد كبير من الطلاب ، و قام الأخ محمد رضوان الندوى الطالب بالجامعة الاسلامية بنسخها من الشريط .

ويسعدنا أن ننشر هذه الكلمة المرققة الرائعة بعد أن تناولها قلم الداعية المحاضر بالتهذيب و التنقيح ، لتصل إلى أكبر عدد ممكن من الشباب المسلم ، و تنتشر هذه الكلمة الرائدة ، و تظل غاية الحياة :

« أينقص الدين و أناحى » و الله من وراء القصد و هو الهادى إلى سواء السبيل .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

حكمة الدعوة و صفة الدعاة

حمد الله و أثنى عليه ثم قال :

صاحب السعادة نائب رئيس الجامعة و زملائى الأساتذة و المربين و أبنائى الطلبة المجدين !

إن من الأمثال السائرة فى الأدب الأجنبي أن هنالك شيئين لا يخضعان لقانون مرسوم ولحدود معينة ، وهما الحب و الحرب ، أما الحب فأتركه للأدباء و الشعراء يبحثون فيه ، و أما الحرب فلا شأن لى بها ، ولكنى أعدل عن هذا المثل الأجنبي الذى لا ينم عن روح إسلامية و تفكير إسلامى ، أعدل عنه إلى مثل آخر و إلى أصل من الأصول ، وهو أن التربية و الدعوة لا تخضعان لقانون مرسوم ، فان التربية نظام معين خاص ، إنى أستهين - و أنا أثير هذه النقطة - بقيمة المكتبة العظيمة التى ألفت فى فن التربية ، ولا أستهين بجهود المربين المطلعين على التجارب العملية

و المناهج التربوية العالمية ، و لكني قلت في مناسبة في حديث كنت أتحدث به في إحدى كليات التربية في بلد عربي كبير : إني أعتقد أن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون ملهماً ، و كذلك أقول ، و لا أطلق كلمة الالهام بمعنى المصطلح الشرعى ، و لكن التربية هى التى تفتق القريحة و تشعل المواهب ، و تلهم المعانى البعيدة إذا سنحت لها مناسبة ، وكذلك الدعوة لايمكن أن تخضع لقانون خشيب مرسوم معين ، وضعه البشر أو وضعه رجال الدعوة ، إن من يخضع الدعوة أو الدعاة لقانون مرسوم أو لقائمة من رؤوس الأقلام أو من الغايات ربما يصطدم بتجربة قاسية .

عندنا حكاية لا بأس أن نحكيها أمامكم : إن رجلا استخدم خادماً ، و كان هذا الخادم ذكياً طلب من السيد أن يضع له قائمة الواجبات ، ما هى الواجبات التى أكلف بها ، فوضع له قائمة : تعمل كذا فى الوقت الفلانى ، وتعمل كذا ، وتذهب إلى السوق و تحضر لنا الحاجيات اليومية من لحوم و خضر ، و غير ذلك ، و تقوم بخدمة فلانية ، فأخذ هذه القائمة و احتفظ بها ، و مرة ركب هذا السيد جواداً ، و لكنه لسوء الحظ ارتبكت رجله فى

الركاب ، و أراد أن يتغلب على هذه المشكلة فما نجح ، و كان الخادم واقفاً ، فاستعان به وقال : أغثني يا فلان فأخرج الورقة من جيبه ، و فتحها و مدها إليه و قال : أين فى هذه القائمة أن السيد إذا ارتبكت رجله بالركاب فانى أعينه ، و السيد يعانى مرحلة فاصلة بين الموت و الحياة يخشى عليه أن يسقط ، أو أن يتورط فى مرحلة أخرى ، و لكن هذا الخادم اعتمد على هذه القائمة وكان أميناً عليها ، مخلصاً لها ، مرتبطاً بها فأبى و رفض أن يعينه لأنه غير مكلف بهذه الخدمة .

فأخشى أننا إذا قيدنا و فسرنا الدعوة بتفكيرات عصرية أو تفكيرات عملية تقوم على التجربة وعلى طبيعة العصر ، و على طبيعة البيئة ، فاننا نجنى على الدعوة ، و نجنى على المجتمع .

و لكن الله - سبحانه و تعالى - قد حل هذه المشكلة ، وجاء القرآن المعجز ، الكتاب الخالد ، الكتاب الذى لا تبلى جدته فتوسط بين التفريط و الافراط و قال : - و إنى أحمد الله تعالى - على أن القارى اختار هذه الآية فى تلاوته - وهذه معجزة من المعجزات القرآنية التى لا تعد و لا تحصى ، والمعجزة

لا يستحضرها الانسان إلا إذا عاصرها و عاشهـا .

و لماوقع حادث وفاة الرسول - ﷺ - و غلب المسلمون على أمرهم ، فقد كثير منهم رشده ، و قف سيدنا عمر - رضى الله عنه - يقول : من قال : إن محمداً - ﷺ - قـد مات فسأضرب عنقـه ، فجـاء سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - و تلا هذه الآية الكريمـة :

« و ما محمد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل » الآية .

هنالك ذاق المسلمون - و فيهم كبـار الصحابة رضى الله عنهم - لذة هذه الآية ، و شهدوا روعتها و إعجازها ، و كأنما نزلت الآية الساعة ، و نحن لو قرأنا هذه الآية مئات من المرات لم نذق هذه اللذة ، و لم نشعر كما شعر الذين قـد شهدوا هـذا الحادث الفريد فى تاريخ الأمم و فى تاريخ الديانات .

و كذلك قوله تعـالى :

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتى هى أحسن » الآيه .

تستشعرون إعجاز القرآن فى قوله : « أدع إلى سبيل ربك »

وتشعرون بمدى أبعاد الاطلاق الذى جاء فى هذه الآية ، و أبعاد التقييد الذى جاء فيها فأطلق و قال : « إلى سبيل ربك » ماحدد و ما عين شيئاً معيناً خاصاً ، فمثلا تحثون على الصلاة ، تدعون الناس إلى مكارم الأخلاق، تدعون الناس إلى الفضيلة ، تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الانسانية ، و « سبيل ربك » يحوى كل شئ ، إنه يمتد و يسع الآفاق ، ليست هـذه الآفاق فقط ، إنهـا آفاق الحاجات الانسـانيـة ، آفاق الحيـاة الانسـانيـــة ، فاستحضروا الاعجـاز الـكامل فى قـوله تعـالى : « ادع » و هو لا يختص بالخطابة ، و لا يختص بالـكتابة ، و لا يختص بالوعظ و النصيحة إنمـا قال : « أدع » و الدعوة عامـة تشمل هـذه المعانى كلهـا ، و هذه الأساليب كلها ، ثم قال : « إلى سبيل ربك » و أى كلمة أوسع أفقاً ، وأوسع إطلاقاً ، من قوله ـ تعالى ـ : « إلى سبيل ربك » .

أعترف أمامكم أن الحكمة ـ الكلمة البليغة العربية التى جاءت فى الآية ـ لاأعتقد أنها من الممكن ترجمتها أونقلها إلى لغة أخرى ، و كذلك « الموعظة » كلمة مطلقة ، و الحسنة أيضاً كلمة مطلقة ، وهنا جاء القرآن يحل هذه المشكلة فأطلق و قيد ، وأوجز وأعجز ،

فقال : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة » الآية .

و لكن هناك نماذج من الدعوة الحكيمة ، نماذج رائعة خالدة على مر العصور ، و على مر التاريخ ، و على مدى تاريخ الدعوة ، جاءت فى القرآن ، و اختار منها نموذجاً جاء فى القرآن ونموذجاً جاء فى السيرة النبوية المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ .

من هذه النماذج تستطيعون أن تفسروا الدعوة ، وأن تطبقوها تطبيقاً عملياً ، و أن تستلهموا المعانى الدقيقة التى انطوى عليها هذا النموذج الرائع ، فأذكر ـ أولا ـ قصة دعوة سيدنا يوسف ـ عليه و على آبائه الصلاة و السلام ـ التى جاءت مفصلة فى سورة يوسف ، يقول ـ تبارك و تعالى ـ :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

« و دخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، و قال الآخر ، إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » .

إخوانى ! استحضروا ـ أولا ـ الملابسات التى رافقت هذه

الدعوة ، و الجو الذى اكتنف هذه الدعوة ، لم تكن هذه الدعوة إلى الله بالأمر الميسور و بالأمر الهين ، إنها تنطلق فى جو رهيب مظلم ، قلق ، فى بيئة تقف سداً منيعاً ، أمام الغاية النبيلة الشريفة التى يتوخاها سيدنا يوسف عليه السلام ، إنه دخل السجن كرجل متهم بجناية شنيعة ، و موقف المتهم دائماً ، موقف ضعيف ، فهو لا يكون فى موقف الداعى الكريم المبجل الذى تجله القلوب ، و الداعى الوقور المحترم ، و هو و إن كان بريئاً من هذه الجناية كبراءة الذئب من دمه كما يقول المثل العربى ، و لكن الحادث كان قد وقع ، التهمة قد وجهت ، و المحكمة قد حكمت ، و شاع فى الناس أن يوسف قد ارتكب جريمة شنيعة ، إنه خان سيده فى أعز ما عنده ، وفى أكرم ما عنده ، هذا موقف ضعيف ، ولكن سيدنا يوسف لما دخل السجن لفت الأنظار ، وحل فى القلوب موقع الحبيب الأثير المفضل المكرم ، و كان ذلك من التخطيط الحكيم و تقدير العزيز العليم .

إن زميلين من زملاء السجن و إن لم يكونا زميلين له ، لأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وأما هما فقد ارتكبا

جنايات خلقية ، و لكن على كل حال جمع بينه و بينهما سجن واحد ، و معتقل واحد ، رأى كل منهما رؤيا ، و ألهمهما الله ـ تعالى ـ كما أنهما عرفا بتجربتهما و فراستهما الانسانية ـ التى يكون لكل إنسان حظ منها ـ أن الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يفسر هذه الرؤيا هو يوسف ، هذا الذى دخل السجن جديداً ، و كانت تلوح على سيماه النجابة و النسب الرفيع و سيما الصالحين ، فجاءا إليه و حكى كل واحد منهما رؤياه :

« قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، و قال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » الآية .

فالنقطة التى أريد أن أنبهكم عليها ، و ستكون هذه النقطة مبدأ لكم ، و تقوم مقام مأة كتاب .

أن هذه الآيات تشتمل على نقطتين ترجعان إلى علم النفس ـ وعلم النفس عالمى بشرى ـ أولا : التأكيد لهما أن يوسف يستطيع أن يفسر النبأ الذى جاءا لأجله و قصداه ، و أنه لم يكن هذا القصد خطأ و أنهما ما ضلا السبيل ، إنهما

وصلا إلى غايتهما ، و هو الرجل المطلوب الذى يستطيع أن يرشدهما ، فان الأصل النفسى العميق أن صاحب الحاجة يريد أن تقضى حاجته فى أقرب وقت ، المريض إذا ذهب إلى طبيب يشخص المرض ويصف الدواء و الطبيب يماطله ، يقول : سأراجع الكتب من المصادر الطبية ، وسأراجع فلاناً وفلاناً فى البلد ثم أحاول أن أعالجك ، و المريض المسكين يتألم قلبه ، وينقطع أمله ، و يرجع خائباً وربما لا يرجع إليه بعد ذلك .

فالشئ الأول أن يثير الانسان الثقة فى ذلك الرجل الذى ساقته الحاجة إليه ، و يقنعه بأن علاجه عنده ، و أن طلبته و حاجته ستقضى عنده ، فقال :

« لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما » الآية .

يعنى أن حاجتهما ستقضى سريعاً ، لأنهما كانا فى السجن مرتبطين بقوانين السجون و المعتقلات ، فما كان لهما أن يجلسا بجواره ـ طويلا ـ فأراد أن يطمئنهما أن حاجتهما ستقضى سريعاً ، فقال « لايأتيكما طعام ترزقانه

إلانبأتكما » ، الآية ، وهنالك تفسيران للآية :

١ــ التفسير الأول : أن سيدنا يوسف عليه السلام قال : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله » أى تأويل هذا الطعام يعنى حقيقة هذا الطعام ، فانه أراد أن يوجد الثقة فيهما عن طريق إظهار قدرته على التنبؤ بشئ لم يره فاستعان به على إيجاد الثقة فى نفوسهما .

و أنا لا استسيغ هذا التأويل ، أولا لأنه إخبار بالغيب ، ثم إن السجون ليس هنالك تنوع كبير فى الأطعمة ، فباستطاعته ـ بكل سهولة ـ أن يخبرهما بنوع الطعام الذى سيحضر ، فأى ألمعية لسيدنا يوسف عليه السلام و أى براعة له فى الاشعار بنوع الطعام الذى سيحضر ، و جاء فى التوراة أن سيدنا يوسف عليه السلام ، كان مشرفا على المطعم ، إن صح هذا فانه لا غرابة لمشرف المطعم فى أن يخبر ، أى نوع من الطعام سيحضر ، فأنا أميل إلى التفسير الثانى الذى ورد فى بعض كتب التفسير ، وهو أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما تأويل هذه الرؤيا حتى يطمئنا أنهما لا يحتاجان إلى جلوس

طويل ، ولايملان و لا يأتى السجان فيقول : اذهبا إلى مكانكما ، و من الذى أذن لكما بالحضور هنا ، فقال : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » .

و كانت مصر على جانب كبير من الحضارة ، وتنظيم الحياة المدنيـــة ، فالمفروض أنه كانت هناك مواعيد مضبوطة للطعام ، و كان وقت الطعام قد حضر فلذلك قال : « لا يأتيكما طعام » الآية .

ثم هنا نكتة حضرت لى الآن ، وهى أن بين المسجونين وبين الطعام الذى يأكلونه فى السجن صلة قوية فلما ذكر الطعام أثار فيهم الشوق ، وانتعشت قلوبهم بسماع ذكر الطعام ، فالطعام حبيب إلى كل إنسان ، و لكنـــه إلى المسجون أحب وألذ وأشهى ، فلما ذكره يوسف انتعشت نفوسهما ، و تهيأت آذانهما فقال : « لا يأتيكما طعام ترزقانه » . . . الآية ، ثم تثور فيـه الطبيعة النبوية ، فلا يرد الفضل فى ذلك إلى ذكائه ، و لا إلى براعته ، بل يرد الفضل إلى الله ، و من هنـا ينتقل انتقالا حكيماً قلمـا يوجـد له نظير ، فقال : « ذلكما مما علمنى ربى » . فكان المدخل الكريم إلى النصيحة التى يريدها ، و انظروا : كـيف ينتقل

من تفسير الرؤيا ـ قبل أن يفسرها إلى الدعوة الحكيمة ، وكان ذلك مما لا يسيغه ولا يتحمله هؤلاء المسجونون الذين ساقتهم الحاجة إليه ، و كانا قد فزعا بهذه الرؤيا المفزعة ، وجاءا فزعين مرتاعين ، فكيف يحتملان هذا الحديث الطويل ، فقال لهما بأنه لا يرجع الفضل إلى ذكائي و براعتي بل يرجع الفضل إلى الله ـ تعالى ـ و من هنا يدخل من هذا المدخل اللطيف الرقيق الخفيف على النفوس إلى الدعوة ، تستحضرون حكمته فى الدعوة ، أنه لم يكن يستطيع أن يقول : صبراً أيها الاخوان ، أيها الزملاء الكرام ! سأفسر لكم الرؤيا ، و لكن اسمعوا منى أولا أن هناك شيئاً أهم من هذا ، كيف كانوا ينشطون لسماع هذا الكلام ، و هذا الحديث الذى لم يتعودوه ، وما جاؤا لأجله فقال من غير انفصال طويل ، بل فى لحظة واحدة :

« ذلكما مما علمنى ربى » ، استحضروا الجو الذى وقعت فيه هذه الدعوة الحكيمة التى لا أعرف مثلها دعوة إلا دعوة الرسول ـ ﷺ ـ و سأعرض عليكم نموذجاً منها ، و لم أمر بأى نموذج من نماذج الدعوة فى تاريخ الدعوة و تاريخ

الدعاة أدق و أعمق منها حيث بدأ الحديث بقوله : « لا يأتيكما طعام ترزقانه . . . » إلى أن قال . « ذلكما مما علمنى ربى » كيف انتقل إلى الحديث عن الرب و إلى التوحيد ، هل هنالك انتقال أخف و أرق وألطف وأسرع من هـــذا الانتقال ؟ فكأنه يقول : ما كنت لأفسر لكم هذه الرؤيا ، وأنا الانسـان الضعيف العاجز الذى لم أملك نفسى أمام هذا الأمر ، وأراد الناس أن يزجونى فى السجن فلم استطاع أن أقاومهم ، و كيف يستطيع الانسـان الضعيف العاجز الذى يساق إلى السجن فلا يملك شيئاً أن يصل إلى هذه القمة الشامخـــة من العلم بنفسه ، بل « ذلكما ممـا علمنى ربى » ، ثم أثار سؤالا آخر ، وهو لماذا علمنى ربى ؟ ومن هنـا انتقل انتقـالا آخر . إنها رحلة طويلة فى طريق الدعوة ، لكن سيدنا يوسف بحكمته و بروحانيتـــه الشفافة ، و قلبه المشرق ، وبفكره النقى الربانى استطاع أن يطوى هذه الرحلة الطويلة التى قد يطويها الدعاة و الحكماء و الفلاسفة فى عـدد من السنين ، استطـاع أن يطويها فى لحظة واحدة فقال : « ذلكما ممـا علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله و بالآخرة هم كافرون » .

هنالك شعر سيدنا يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه الآن في موقف قوى ، فى موقف عال ، كأنه طلع جبلا ، أو ربوة عالية ، فقال : « يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » وكان لو قدم هذا قبل ذلك الكلام ، لكان كلاماً ثقيلا على آذانهما وعلى قلوبهما ، ولكن هنا استطاع أن يقول ، وحق له أن يقول : « ياصاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » لاحظوا هذا التقديم والتأخير ، ولاحظوا هذا الترتيب القرآنى ، الترتيب الحكيم ، وكان لو استمر فى الكلام ، كان الكلام ممجوجاً ، ولكنه شعر بقوة فى نفسه ، وشعر بحسن استماع منهم لما كان يقرأ فى وجوههم أنهم تهيأوا لاستماع هذا الصوت الذى يأتى من السماء ، لأنه دعوة الله للعبيد عن طريق الأنبياء والمرسلين ، فقال : « ياصاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » اشعروا بالنبرة التى تختلف عن النبرة الأولى ، كانت النبرة الأولى رقيقة لطيفة خفيفة ، فجاءت هذه النبرة قوية متدفقة بالحياة ، متدفقة بالثقة ، وكان ذلك من أقرب الطرق إلى فهمهم أما لو استعان

بأشياء منطقية و كلامية لما كان لهم أن يفهموا منه ذلك .

ثم قال : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » إنها أسماء من غير مسميات ، إنها أسماء لا حقيقة لها ، أسماء عند اليونان ، و أسماء عند البراهمة الوثنيين ، و أسماء عند غيرهم من أمثالهم ، إن الاعجاز القرآنى يكمن فى أنه أطلق عليه كلمة الأسماء ، إن الذى قرأ تاريخ الديانات و تاريخ الميثولوجيا يعرف إعجاز هذه الآية أنه ليس هناك إلا أسماء محضة ، أين الآلهة ؟ أين إله المطر ، وإله الحرب ؟ و أين إله الحب وإله الجمال ؟ أين هذه الآلهة ؟ التى لا وجود لها إلا فى الذهن وفى القائمة الخيالية ، « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » و لا تزال هذه الآية معجزة إلى أن يرث الله الارض و من عليها ، و ليست الوثنية إلا أسماء ، و قد فضح القرآن الوثنية بقوله : « إن هى إلا أسماء » .

وهنالك شعر سيدنا يوسف بأن الفراغ الذى وجد فى قلوبهم قد ملئ ، و ليس من الحكمة الآن أن يطيل الكلام ،

و يتوسع فى الحديث عن التوحيد ، و الطبيب النطاسى يعرف مقدار الوجبة من الدواء ، ومدى صلاحية المريض وحاجته ، فلا يزيد عليها ، إنها طريقة الداعى الملهم ، الداعى المؤيد من الله ، إنه يشعر أنه قد وصل إلى نقطة لا يجوز له أن يتخطاها ، و لأجل ذلك فان من يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجنى عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويتها ، و يجنى على الدعاة ، ولما شعر سيدنا يوسف أنه لاتتسع نفوسهم ولاتتهيأ لسماع نصيحة أكثر من هذا وقف ، و بدأ يفسر الرؤيا .

وقد تجلى فى هذه القطعة القرآنية جمال يوسف ، الجمال الحقيق ، الروحى ، و الجمال الفكرى و الجمال النبوى فى أروع مظاهره .

و لكن من الغريب أن هذه القطعة المعجزة قد تجردت عنها التوراة ، فقد قارنت بين قصة يوسف فى القرآن ، وقصة يوسف فى « Bible » فدهشت عند ما رأيت أن هذه القطعة التى هى من أجمل القطع الأدبية فضلا عن أنها من القطع الدينية لم ترد فى التوراة ، تجد فيها الأعداد و الأرقام و المساحة ،

كان الشئ الفلانى كذا من الأذرع و الأشبار ، و لكن تجرد العهد القديم (Bible) بطوله و عرضه عن هذه القطعة الجميلة ، و تعرض للتابوت أن كان كذا من الأمتار ، وأن لباسه كان كذا و كذا ، و أنه تشقق من هنا و هناك ، و لكن هذه القطعة التى تسحر النفوس و تلهم المعانى - التى لم تتعرض لها التوراة - تمثل نموذجاً رائعاً من نماذج الدعوة فى القرآن الحكيم .

و أذكر لكم نموذجاً رائعاً آخر :

إن رسول الله - ﷺ - لما وزع سبايا و مغانم حنين فى الجعرانة على أشراف قريش كما تعرفون و قرأتم فى السيرة ، أنه أعطى قريشاً فأجزل لهم العطاء ، أعطى أبا سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل ، و فلانا و فلانا ، و كان نصيب الأنصار فيها قليلا ، اعتماداً على إيمانهم و على حبهم و صلتهم الدقيقة العميقة الدائمة بالاسلام و نبيه - عليه الصلاة و السلام - .

هناك تقاول بعض الشباب ، فقالوا : إن رسول الله - ﷺ - خص بنى قبيلته بأكبر نصيب من العطايا و المغانم ، و بلغ هذا رسول الله - ﷺ - فحسب له حساباً لأنه النبى

المربى و ليس النبي فقط ، فأمر بجمع الأنصار فى حظيرة فاجتمعوا ، و قال : لا يدخل الحظيرة إلا الأنصار ، و لما اجتمعوا كلهم قال لهم :

« ما هذه القالة التى بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم » .

فاستحيوا و قالوا : لا شئ يا رسول الله ، إنما هم بعض الشباب قد وسوس لهم الشيطان ، ثم قال : أما أتيتكم ضلالا فهدا كم الله بى ، و عالة فأغنا كم الله بى ، و أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا لله ولرسوله المن و الفضل ! .

و لم يتبدر الرسول - ﷺ - بالكلام ، بل أراد أن يتكلم بلسانهم ، فأثار فيهم الشعور الانسانى و ألهمهم المعانى فقال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال : والله لو قلتم لصدقتم ولصد قتكم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، و مخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، و عائلا فواسيناك ؟ أى زعيم ، و أى قائد و أى مرب ، و أى صاحب فضل يستطيع أن يشهد على نفسه

بهذا ؟ والله لو لا أن هذه الكلمات قد وردت فى السيرة النبوية وفى حديث صحيح أصله فى الجامع الصحيح للبخارى ، و قد ذكره الحافظ ابن القيم فى « زاد المعادى بسياق أوسع وأشمل ، لولا أنها قد وردت فى الصحاح وفى كتب السيرة لما كان لأى مسلم أن ينطق لسانه بهذه الكلمات : « أما أتيتنا مكذباً فصدقناك ، و مخذولا فنصرناك ، و طريداً فآويناك » !

ثم قال بعد أن أثار نفوسهم وأجرى عيونهم ، وفتح الأغلاق من قلوبهم : « يا معشر الأنصار ! أ وجدتم على فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم ؟ » انظروا ، كيف أوجد فى نفوسهم الثقة التى كانت كفيلة بحسم كل ما ساور نفوسهم - إن كان هناك شئ قد ساور نفوسهم - وقال : « أوجدتم على فى لعاعة من الدنيا (واللعاعة : خضرة ناعمة) تألفت بها قوماً ليسلموا و وكلتكم إلى إسلامكم » ، ثم قال الكلمة المثيرة البليغة التى ما يمكن أن تطلق أو تنطلق من فم إلا و تفجر الأنهار و تشق الصخور ، و تأتى بالمعجزات .

« أما ترضون يا معشر الأنصار ! أن يذهب الناس بالشاء و البعير إلى رحالهم وترجعون برسول الله - ﷺ - إلى رحالكم ، و الله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً و وادياً ، و سلكت الأنصار شعباً و وادياً لسلكت شعب الانصار و واديها ، الانصار شعار و الناس دثار ، أللهم ارحم الأنصار ، و أبناء الأنصار ، و أبناء أبناء الأنصار »

ويحلولى أن أقول و أردد هذا الكلام فى مدينة الأنصار :

« أللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

ثم ماذا كان ؟ كان الشئ المتوقع الطبيعى ، هملت عيونهم حتى اخضلت لحاهم ، و قالوا : رضينا برسول الله - ﷺ - قسمة و حظاً .

و الله لو بحثنا - ولى مشاركة فى بعض اللغات غير العربية فضلا عن لغتى الاردية - لو بحثنا فى أدب الأمم و الديانات ، ما وجدنا موعظة أبلغ من هذه الموعظة ، و علماً بالنفس الانسانى أكثر عمقاً و أكثر صدقاً من العلم النبوى .

هذان النموذجان من أروع النماذج التى دونت وسجلت فى الآداب البشرية و فى المكتبات الانسانية .

أيها الاخوان ! أقول لكم ـ و الوقت ضيق - إن الأشياء الكفيلة الضامنة بنجاح الدعوة إنما هى عوامل معدودة ، أستطيع أن ألخصها فى عاملين أساسيين :

أولهما : أن تملك الفكرة وتهيمن على مشاعر الداعى ، وإن تجرى منه مجرى الروح والدم ، وأن تمتزج بنفسه ، هنالك يكون الداعى هو الداعى الموفق الملهم المؤيد من الله الذى سيكتب له النصر ، و لا يكتب له أى إخفاق أو فشل .

فالشرط الأول أن لا تكون الدعوة صناعة أو حرفة أوفناً ، و أن لا تكون حذلقة و مجرد براعة فى الخطابة ، بل تكون عقيدة و فكرة ، و إيماناً يستحوذ على النفس الانسانية و يملأ جميع جوانب النفس حتى إذا أراد الانسان أن يتخلى عنها لم يستطع و لم يقدر ، هذا كان شأن سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يوم الردة ، هل تستحضرون الكلمة الخالدة التى نطق بها و التى غيرت مجرى التاريخ .

طلب منى أن ألقى الكلمة الأخيرة فى المؤتمر الآسيوى الاسلامى الأول فى كراتشى وأمامى نخبة من قادة الفكر الاسلامى ، و من قادة العالم الاسلامى ، فاستعنت بهذه الكلمة و قلت لهم ، ما هى تلك الكلمة التى ستكون رائدة هذا المؤتمر ، فيحملها الذين ينصرفون من هذا المؤتمر ، قلت لهم : إن الكلمة التى تحملونها من هنا هى الكلمة التى جرت على لسان أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يوم الردة و منع الزكاة :

« أينقص الدين و أنا حى ؟ »

أنتم المسؤلون أمام الله يا إخوانى الطلبة ، يا أبنائى شباب المسلمين و العرب ! أنتم مسئولون أمام الله ، درستم فى هذه الجامعة المباركة ، وأى مكان أقرب إلى مدرسة الرسول ـ ﷺ ـ و إلى صفة المسجد النبوى التى درس فيها كبار الصحابة ، وحفظوا و وعوا أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وتخرج منها مثل أبى هريرة راوية الحديث ووعاء من أوعية العلم ، أى جامعة أقرب إلى هذه المدرسة من هذه الجامعة ، إذن فمن أى جامعة تتوقع أن يخرج منها دعاة تملكهم الدعوة .

و الله لو استطعت أن أنقش هـذه الكلمة على صدر كل واحد منكم لفعلت ، ياليتها كانت هذه الكلمة مكتوبة في كل بيت على لوحة بقلم عريض : « أينقص الدين و أنا حي ؟ »

أما الشئ الثاني : فهو التجرد عن المطامع ، و الزهد في الدنيا ، لا أعني به زهداً نصرانياً و لا زهداً رهبانياً ، « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » الآية .

و لا رهبانية في الاسلام ، و لكن الدعوة تحتاج إلى شئ من سمو النفس وعلو الهمة والتجرد عن المطامع ، و الزهادة في المناصب و الوظائف الكبيرة ، إن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم وفيما وسع الله به عليهم فانهم يشكون في إخلاصكم ، و يكونون حرباً عليكم ، فأوضحوا لهم أنكم لستم طلاب ملك ولا منتجعي جاه و منصب ، و لا رواد ثروة و رخاء أو مدفوعين من شح و حرص .

قيل لشيخ الاسلام ابن تيمية : يقال : إنك تريد الملك ، فقال في دهشة و قوة أنا أريد الملك ؟ ! و الله إن ملك التتار

لا يساوى عندى درهماً . و قـد كانت دولة التتار أكبر دولة و أكبر قوة على وجه الأرض فى ذلك الحين .

و إن أحـد المربين فى الهنـد الذى نفع الله به خلقاً كثيراً ، عرض عليه ملك دهلى مالا طـائلا ، فقـال له : لا شأن لى به ، قال : لا بد من أن تقبل شيئاً ممـا أعطانى الله ، فقال : إن الله ـ سبحانه و تعالى ـ يقول : « قل متاع الدنيـا قليل » فاذا كانت الدنيـا كلها قليلة : فقـارة آسيا ـ طبعاً ـ أقل منها ، والهند أقل منها ، ثم دهلى أقل منها ، و أنت لا تملك إلا هذا فكيف ارزأك فى هذا الزهيد اليسير .

و أحكى لكم قصة وقعت فى دمشق ، كان الشيخ سعيـد الحلبي من كبار الأساتذة و المربين فى القرن المـاضى و كان ـ مرة ـ يلقى درساً فى جامع من جوامع دمشق فجاء إبراهيم باشا ـ الحاكم العـام لسورية ، و إبراهيم باشا من تعرفونه فى القسوة و العنف ـ و دخل ووقف أمام الباب ، وكان الشيخ يشكو ألماً فى رجله ، و كان ماداً رجله إلى الأمام لأنه كان مستنداً إلى جدار المحراب و يلقى الدرس فكانت رجله إلى الباب ، فدخل

إبراهيم باشا و معه المحافظون العسكريون والشرطة ، فانتظر وتوقع أنه سيقبض رجله ، و لكنه لم يفعل ، و خاف أصحابه عليه من السيف ، وقبضوا ثيابهم لئلا يصيبها دم زكى ، دم عالم تقى ، وبقى إبرهيم باشا واقفاً ثم رجع و أرسل صرة من دنانير ذهبية مع أحد الخدم ، وقال : تقدم إلى سيدنا الشيخ سعيد الحلبي ، و تقول له : هذه هدية من إبراهيم باشا ، فلما جاء بها الخادم إليه قال كلمته البليغة الحكيمة التى هى أبلغ من ألف قصيدة ، قال قل لسيدك ، إن الذى يمد رجله لا يمد يده .

فالانسان مخير ، إما أن يمد رجله وإما أن يمد يده فاذا مد رجله لايسوغ له أن يمد يده ، لأنه تناقض .

و قد جبل الناس على حب من زهد فيما عندهم و البغض لمن ينافسهم فيما يحرصون عليه ، هذه هى الطبيعة البشرية منذ آلاف السنين ولا تزال ، فأنتم إذا أردتم أن تؤثروا فى نفوس من توجهون إليهم الدعوة فأوضحوا لهم أولا و اطمئنوهم أنكم لستم طلاب ملك و مال ، وطلاب رئاسة وجاه ، و طلاب

مناصب و وظائف ، إنما أنتم تفعلون ذلك شفقة عليهم ، ورقة بهم ، وعطفاً عليهم ، وخوفاً من أن يصيبهم مكروه .

أنا تلميذ صغير لتاريخ الاصلاح و التجديد ، وإن هواياتى و إن كانت متعددة ولكن تأتى فى مقدمتها هوايتى فى التاريخ ، و خاصة تاريخ الاصلاح و التجديد ، فما رأيت تجربة فى القرون الأخيرة ـ أعنى بعد القرن الثامن على الأقل ـ أنجح و أكثر توفيقا من تجربة الاصلاح و التجديد التى قام بها الشيخ أحمد السرهندى فى القارة الهندية ، و قد حكيت قصته فى الجزء الرابع من كتابى : « رجال الفكر و الدعوة » ستقرأون هذه القصة بالتفصيل .

تقرأون فيه أنه كيف استطاع الرجل الأعزل المجرد من كل سلاح والمجرد من كل ثروة مادية ، والمجرد من كل جيش ، أن يحول التيار فى الامبراطورية المغولية العظمى التى كانت فى الدرجة الثانية بعد الامبراطورية العثمانية الكبرى فى الشرق الأوسط ، و فى البلاد العربية والتركية ، إن هذه الامبراطورية

التى لم تكن إمبراطورية - بعد الامبراطورية العثمانية - أكبر منها مساحة ، وأكثر منها فتوحاً ونجاحا ، وكان على رأسها الملك القوى القاهر الذى اتسعت له الفتوحات الواسعة ، وهو جلال الدين أكبر ، وكان هذا الامبراطور نشأ فى قلبه عداء للاسلام و حقد عليه ، لأن من ينحرف عن الاسلام و يثور عليه أقبح و أشد من الذى نشأ فى الكفر ، كما حكيت لكم فى حديثى بالتفصيل فى محاضرتى بعنوان « عاصفة يواجهها العالم الاسلامى والعربى » فى هذه الجامعة نفسها ، ولأن الذى يخرج من النور إلى الظلام يكون أعمش و أقل إبصاراً من الذى نشأ فى الظلام ثم إنه يصاب بمركب النقص .

فكان الامبراطور جلال الدين ، نشأ فيه عداء شديد للاسلام ، و من الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحد فى بلاطه أن يسمى ابنه محمداً ، لأنه كان يكره هذا الاسم ، فترك الناس التسمية بهذا الاسم ، وكان من يذبح بقرة فى عهده يعاقب بالقتل ، و كان قد فتح الخمارات ، و شجع الناس على شرب الخمور و أكل لحم الخنزير ، و كان قد تأثر بالبرهمية و الوثنية

الهنـــدية ، كان يتجه بالمملكة إلى الطـابع الهنـــدى البرهمى و الفلسفـــة الهندية القديمـــة[1]

هنـاك قيض الله ـ تعالى شأنه ـ لمكافحـــة هـذا التيـار ومقاومـة هذه الفتنـــة العظيمـــة الشيخ أحمـــد السرهندى (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) فجلس فى ركن من أركان بيتـه وبدأ يفكر فى شق الطريق لمكافحـة هذا التيار ، فجعل يراسل الملك و أهل البلاط ، من الوزراء الكبـار ، و الأمراء العظام ، و يثير فيهم النخوة الاسلامية و الحميـــة الدينيـــة ويقول لهم : يا جمـاعة ! أنتم مسلمون وأولاد المسلمين ، وقـد شرفكم الله تعالى بنعمة الاسلام ، و رغم ذلك نرى أتبـاع محمـد ﷺ ـ وهـو حبيب رب العالمين ـ أذلاء فى هذه البلاد التى فتحهـا المسلمون ، و أراقوا عليها أزكى دمائهم وصرفوا لهـا أفضل عبقرياتهم ، وأحسن مواهبهم ، كيف تحتملون هـذا الوضع و كيف ترضون بذالك يا عباد الله ؟ .

صـار يثير فيهم كامن الايمـان ، ويحرك فيهم العرق

---

(١) راجع للتصيل رسالة المؤلف « الدعوة الاسلامية فى الهند و تطوراتها » .

الاسلامی الذی لایخلو منـــه قلب أی مسلم ، وما زال یثیر النخوة الاسلامیة و یواصل العمل ، وبقی هکذا مـــدة طویلة یراسل و یکتب و یقابل حتی کسب عدداً من الأمراء فکانوا أنصاره و تلامیذه ، و مات جلال الدین أکبر و خلفه ابنـه نور الدین جهانکیر و طلبـــه إلی بلاطه ، ولم یسجد له الشیخ تعظیماً کما کانت العادة فی البلاط ، فسجنه فبقی فی السجن سنتین ، ثم أمره بأن یبقی فی المعسکر ویرافقه لـــدة ثلاث سنین فصبر علی هذه الحالة وعرف جهـانکیر أنه من طراز آخر و أنه عالم ربانی مخلص ، زاهد فی الدنیا ، محب للخیر فأحبه و أجله و بدأ یهتم برفع شعائر الاسلام و بنـاء المساجد فی المناطق والقلاع التی کان یفتحها ، و احترام الاسلام والمسلمین .

و لم یزل یجری اتصالاته بالأمراء المسلمین و کبـار الوزراء حتی کون مجموعـة مؤمنة ذات حمیة دینیـــة فقلب التیار ، و غیر مجری التاریخ ، فکان جهانکیر أفضل من أبیـه أکبر ، و کان ابنـه شاهجهان أفضل من أبیـه جهانکیر ، و ممـا یدل علی ذلك أنه لمـا صنع له « عرش الطاؤس » الذی صرف

عليه الملايين ، و تربع عليه نزل بعد هنيهة ، و قال : لقد كان فرعون سفيهاً ، إنه جلس على عرش آبنوس و ادعى الألوهية و قال : « أنا ربكم الأعلى » و لكنى أنا مسلم ، ثم سجد لله شكراً ، ثم جلس على العرش .

و خلفه أورنك زيب عالمكير ، ذلك الذى دون الفتاوى الهندية ، و طبق الأحكام الشرعية ، ونصب الجزية على الهندوس و كان من أفقه الملوك الذين عرفناهم فى العصور الأخيرة ، و من أغير الملوك على الاسلام ومن أكثر الناس حرصاً على اتباع السنة لا تفوته جمعة و لا جماعة ، و حفظ القرآن الكريم ، و جمع أربعين حديثاً و شرحها .

كل ذلك بجهود رجل واحد فقير أعزل ، و لكنه تملكته العقيدة ، و سيطرت عليه الفكرة و تشبثت به الغاية النبيلة ، حتى أصبح لا يملك نفسه و لا يقدر على التحول من موقفه ، و قد أثبت للملوك إنه لا يريد الملك ، و قال لهم : إذا صلحتم أنتم فأنتم أولى للحكم ، لا أشاطركم و لا أنافسكم فى ملككم ، و أدعو الله تعالى لكم بالتوفيق

و النجاح ، و خذوا أنتم الزمام بأيديكم ، وطبقوا الأحكام الشرعية و توجهوا بهذه البلاد إلى الاسلام

هذان عاملان أساسيان فى رجال الدعوة : أحدهما تملك الفكرة و سيطرتها على نفسه ، و الثانى : التجرد عن المطامع الدنيوية و الزهد فى المناصب و الملك .

و اكتفى بذلك و أرجو أن يكون هذا بلاغاً للمستمعين النبهاء الأذكياء أبنائنا أبناء الجامعة الاسلامية ، وعسى الله أن ينفعنا جميعاً لما فيه خير الاسلام و المسلمين

و أعود فأقول لكم : إنه ينبغى أن تكون كلمتكم الرائدة :

« أينقص الدين و أنا حى ؟ »

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .
